مؤتمر التواصل الحضاري بين الجزائر وبلدان الساحل الإفريقي ما بين القرنين16و20م
تاريخها: 15-16 /أكتوبر/ 2017

الدكتور عبد القادر كركار جامعة الوادي

مداخلة : معوقات التواصل الحضاري بين طرفي الصحراء الكبرى قديما وحاليا

تعتبر العلاقات والروابط بين طرفي الصحراء الافريقية الكبرى عامل حيوي بالنسبة لسكان المنطقتين وذالك كنوع من التواصل في اطار تبادل الحاجيات الذي لامناص منه ومن هذا المنطلق تتمحور دراستنا للموضوع والذي أدرجناه تحت تسمية معوقات التواصل الحضاري بين طرفي الصحراء الكبرى قديما وحاليا

1 – النشاط التجاري بين ضفتي الصحراء

أ– أهم المراكز التجارية : إرتبطت الجزائر الواقعة شمال الصحراء وبلاد الساحل الافريقي او إفريقيا جنوب الصحراء بشبكة من الطرق والمسالك المتعددة عبر الزمن، تمتد من أقصى مناطق الشمال إلى أقاليم ما عرف بالسودان الغربي تشكلت نتيجة علاقات تاريخية متينة خاصة في المجال الاقتصادي من أجل تلبية حاجيات كل منطقة وهو ما ساعد على إيجاد سبيل لتواصل فكري وثقافي وإجتماعي في إطار حضاري بين كل من بلاد المغرب عامة و الساحل الافريقي

فنذ القرن 15م كانت التجارة رائجة لى ما وراء الصحراء عن طريق سجلماسة حيث تلتقي قوافل الجزائر بقوافل المغرب الاقصى وتؤم جميعا تمبكتو وغانا، وقوافل أخرى تخرج من سجلماسة أيضا وتلتقي في طريقها بالقوافل الخارجة من الصويرة ووادي نون وتؤم موريتانيا والسينغال والمالي وغانا وغينية[1] هذا قبل أن تتأثر وتتدهور بعد إزدهار التجارة البحرية نتيجة الكشوفات الجغرافية مما جعل بضاعة جنوب الصحراء تنتقل إلى المدن الساحلية بحرا عبر أروبا.

وقد كانت مدينة تيزيل جنوب تلمسان أول الصحراء ومنها تخرج القوافل إلى سجلماسة وورقلة، وهما بابا السودان[2] وأبرز هذه الطرق التي يمكن ذكرها بإيجاز نجد:

1.: طريق قسنطينة الى امقيد وتمبكتو: و يمر على بسكرة وتقرت و ورقلة، وأمقيد الى تومبكتو عبر الهقار والى شط بوروم (برنوح)، وله فرع إلى الشرق منه إلى وادي سوف ومن هناك الى غدامس وغات ، وفرع آخر غربي من البيوض الى عين صالح و فرع ثالث الى غات[3] وهو الطريق الرئيسي للشرق الجزائري في إتجاه الجنوب.

2: طريق وهران و أرزيو الى تومبكتو : ويمر على مشرية و فقيق و يتبع مجرى وادي زوزفانة إلى إيقلي حيث يلتقي بطريق فاس . تومبكتو.

3: طريق مدينة الجزائر الى تومبكتو : و يمر على البليدة والأغواط ووادي ميزاب وعين صالح وأقابلي حيث يلتقي بطريق توات وتمبكتو، وله هو أيضا فرع اخر من عين صالح إلى بئر عيسو، وتنتيلوست، حيث يتفرع الى فرعين [4]

والى جانب هذه الطرق التي تعتبر الاكثر شهرة فقد كان يوجد إلى جانبها طرق تنطلق من محطات تجارية هامة، فقد تميزت الجزائر بأقاليمها التجارية الهامة كمناطق عبور أي ما يعرف في لغة التجارة بالترانزيت مثل ورقلة وتوات اللتين كانتا منطلقا لبعض الطرق الرابطة بين شمال الصحراء وجنوبها، من القرن 2هـ – 9م إلى 13هـ– 19م، منها ما هو رئيسي ومنها ما هو ثانوي، ومن أهم المسالك المنطلقة منها :

– مسلك ورقلة تاد مكة . غاو : و يعد هذا المسلك من أقدم المسالك المؤدية إلى السودان الغربي حيث ورد ذكره في كتاب طبقات المشائخ للدرجيني[5] وهو يمتد في خط مباشر جنوبا

–مسلك ورقلة . أغاديس: يكون على نفس الخط الاول أي ورقلة ثم غدامس و منها إلى غات ثم تاكدة و منها إلى أغاديس وهو يمر إلى الشرق من تاسيلي

بالإضافة هذا نجد طريق أخر وادي سوف والذي يتجه مباشرة إلى غات، ومنها إلى تمبكتو أو إلى كانو و أخر من تقرت الذي يمر إلى غدامس ومنه إلى غات ثم تومبكتو[6]

وإلى توات بإعتبارها مركز تجمع القوافل تبعد عن مدينة الجزائر مسيرة ثلاثون يوما إلى الجنوب[7] ومن أهم طرقها نذكر:

توات . تنبوكتو: وينطلق من توات إلى حاسي حسدة، تليق، تاودسني، تمبكتو
توات . غاو: ينطلق عبر تنزروفت، تساليت، أقاهوك، أنافيف، تبنكورت، وصولا إلى غاو[8]

ب– أهم الأسواق التجارية تعتبر مراكز الاستقرار على أطراف الصحراء في الواحات والوديان النواة الاولى لبدأ قيام المراكز التجارية – الثقافية، وقد تشكلت كأسواق كبرى تمون ما حولها من قرى وواحات تعدت أهميتها من المحلية إلى الجهوية والإقليمية ومن أشهرها:

ورقلة : وتسمى أيضا ورجلان وأيضا وركلان ويصفها إبن سعيد المغربي التي ويصنفها ضمن الجزء الثاني من الاقليم الثالث المتضمن الصحاري المقفرة أنها بلاد نخل وعبيد ... والسفر منها إلى بلاد الصحراء كثير[9] كما ذكرها الحسن بن محمد الوزان الذي وصف سكان ورقلة في القرن 10 هـ . 16 م بالأغنياء جدا لأنهم في اتصال مع مملكة أغاديس[10] .

توات : وتتفرع إلى ثلاث مناطق رئيسية وهي قورارة وعاصمتها تيميمون وتوات الوسطى وعاصمتها تمنطيط ثم أدرار في القرن 13 هـ وتيدكلت وعاصمتها عين صالح[11] وسط الصحراء الكبرى و تعتبر مركزا هام، جعلها حلقة وصل بين الشمال الإفريقي وبين بلاد الساحل، حيث عملت على تزويد التجار بما يلزمهم من غذاء وماء وغالبا ما يقوم تجار السودان و تجار الشمال الإفريقي بعرض بضاعتهم بها[12] ،

وادي سوف : عرفت كأكبر سوق يؤمه التجار من مختلف مناطق الصحراء ما جعل سوقها يزدهر ويصبح منطلق القوافل التجارية والنجوع .
وادي ريغ : على طول وادي ريغ امتدت مجموعة من الواحات مثلت مراكز تجارية تعتبر من أهم النقاط التجارية منذ الفترة الرومانية إذ كانت تربط بلاد السودان بالجزائر.

أما مراكز جنوب الصحراء من الضفة الاخرى فتميزت بأسواق بعضها ثابت على مدار السنة، وبعضها موسمي والبعض الآخر ليس له موعد محدد فكلما دخلت قوافل شمال الصحراء تقام السوق، وعادتا عندما تقترب القوافل من هذه الأسواق و تصبح على بعد يومين أو ثلاثة أيام يرسلون من يعلن اقتراب وصولها حتى يحضر السوق ويتهيأ التجار للبيع والشراء، وهناك بعض السماسرة من يقصدون القافلة قبل دخولها إلى السوق ويشترون البضاعة لغرض المضاربة و الاحتكار[13] ،

سوق أغاديس و تعد من أهم المدن النيجرية بين الصحراء والساحل الإفريقي، تبعد عن العاصمة نيامي بحوالي تسعمائة كيلو متر إلى الشمال شرقي، وقد كانت من الأسواق الكبرى التي يتردد عليها تجار ورقلة [14] ، ويذكر الحسن الوازن في ذالك أن رفاهية وغناء أهل ورقلة، مرده التجارة مع مملكة أغاديس، وذلك في القرن16 الميلادي كما كانت مقصد تجار مصر و غدامس و فزان، ومن أهم بضاعتها البخور و الذهب و العلك[15]

سوق غانة : تقع في الجهة الغربية من إفريقيا جنوب الصحراء، يتردد عليها تجار شمال الصحراء و من جملتهم تجار ورقلة منذ القرن4 هـ – 10 م[16]، وقد كانت منظمة ومحكمة، وعرفت نظام المكوس حيث كانت تقبض على كل حمل بعير داخل للسوق دينارا أو دينارين على كل حمل يخرج من السوق ومن أهم بضائعها الذهب والعبيد[17]

سوق تومبكتو : وهي عريقة ومقصد العديد من القوافل من مختلف الجهات ومرجع لأسعار السلع المتداولة برزت في القرن5 هـ –11 م من طرف من طوارق الازواد، من نقطة التقاء للقوافل و بئر للسقي إلى مدينة كبرى.

سوق غاو: وتقع شرق باماكوا وجنوب تاد مكة على تسعة مراحل منها تسمى أيضا جوجو او كوكو[18] وعلى منعطف نهر النيجر، وأصبحت العاصمة السياسية لمملكة سنغاي على عهد الأسيقيين[19]، وقد عرفت تمدنا كبيرا، حيث سيطرت على التجارة النهرية و البرية في المنطقة.

سوق تاد مكة : تقع إلى الشمال الشرقي من غاو قال عنها الرحالة البكري: " تاد مكة أشبه بلاد الدنيا بمكة و معنى تاد مكة هي مكة وهي مدينة كبيرة بين جبال وشعاب وهي أحسن بناء من مدينة غانة[20] فهي من أحسن الاسواق التي كان يؤمها الورجلانيون والقيروانيون[21] تقام فيها سوق كبيرة كلما حلت بها القوافل الوافدة من شمال الصحراء، لكونها تقع في مفترق الطرق المؤدية إلى أسواق مجاورة، ومنها توزع السلع والبضائع على الاسواق المحلية[22] .

ج- السلع المتبادلة كان من الطبيعي أن السلع التي تصدر لبلاد الساحل هي تلك التي تفتقدها لظروف طبيعية أو حضارية تعوق إنتاجها محليا والعكس كذلك ونذكر منها:

- التمور : وكانت من الأحمال الكبيرة التي تصدر إنطلاقا من الواحات الصحراوية العديدة وعلى رأسها واحات تقرت ورقلة وتوات[23] حيث يكمل الاقليمان بعضهما من الناحية الاقتصادية التمور في توات تقايض باللحوم في الازواد وحوض النيجر[24]

- الملح : يتم إستخراجه من الشطوط المنتشرة في تخوم الصحراء كشط حمراية، الحضنة، مروانة، ملغيغ وغيرها، وقد كانت مادة الملح نادرة في الصحراء[25] فهو ذا أهمية في الحياة اليومية لسكان الصحراء كمادة مطلوبة جدا وغالية الثمن وصلت في بعض أسواق السودان إلى وزنها ذهبا[26].

الابل : علاوة على كون الجمال سفن الصحراء يتاجر بها لكونها لا تكلف التاجر شيئا،فهي بضاعة في حد ذاتها فالمهري مثلا يمشي دون شحن و يأكل من أعشاب الأرض، وحتى إذا أصابه مرض ينحر و يؤكل أثناء الرحلة[27] وبذالك فالاستفادة مزدوجة.

- المنسوجات : ومن أهمها العباءات الصوفية والبرانس الوبرية والحنابل والأغطية وبعض الألبسة البسيطة والخيام والطاقيات، وأقمشة صوفية غير مصنعة تباع في أسواق السودان[28].

. ريش النعام : يقبل عليه التجار لشرائه لكونه يستعمل خاصتا لصنع تيجان توضع على الرؤوس في المناسبات وأثناء الرقص التقليدي، كما تصنع منه مراوح ومظلات وبعض الأنواع من السجاد، ويعلق على مداخل المنازل تعبيرا على الترف و الجاه[29] .

. منتجات صناعية: منها الأدوات الحديدية ذات الاستعمال الواسع، كالسكاكين، السيوف، أقفال المنازل، الألجمة الخاصة بالدواب ، الفؤوس والمعاول، المناجل، السروج، والدروع، الخوذات، السهام، الأقواس، النشاب[30] وتنقل إلى الجنوب حيث تلقى الرواج .

تستورد أسواق الجزائر من بلدان الساحل الافريقي ما ندر في الشمال وعلى رأس البضاعة نجد:
الذهب : ويعد أهم بضاعة تصدر إلى حواضر شمال الصحراء كتوات ورقلة من القرن 10م إلى غاية القرن 19م ويعد مصدر ثروة لتجار الشمال قبل أن تستكشف طرق التجارة البحرية من طرف البرتغاليين والاسبان.

العبيد : وكان العبد يباع أحيانا بكمية من الملح لا تتجاوز 1 كغ وبنقلون من إفريقيا جنوب الصحراء إلى شمالها[31] بالنظر للوفرة من اسرى الحروب التي كانت بين القبائل الزنجية.

الجلود : وتجلب منها أنواع عديدة منها جلود الغنم وجلود الإبل والبقر والماعز المدبوغة وجلود الحيوانات المفترسة من النمور والأسود وجلود الأفاعي[32]

العاج : وتصنع منها مقابض السيوف والسكاكين وبعض التحف الثمينة، وقد كانت كالحلي مطلوبة أكثر لدى الطبقات الميسورة .
التوابل: وهي غالية الثمن وهي من المواد التي قد يعاد بيعها لأسواق أخرى خاصة ما وراء البحر قبل الكشوفات الجغرافية.
بضائع مختلفة: يتم إستيراد أنواع أخرى من السلع والبضائع تلقى الرواج في الشمال منها الماشية ، النحاس، الشب، اللحم المجفف، الفول السوداني، الحناء، الصمغ، وأنواع عديدة من البخور والحلي والاعشاب الطبية...الخ

2 – أهم المعوقات التي ساهمت في تحجيم التواصل شمال – جنوب

من خلال تتبع أهم الطرق والمسالكبين الجزائر وبلدان الساحل الافريقي نرى أنها كانت تمر عبر أراضي قاحلة من أشد مناطق العالم حرارة تصل أحيانا 50 درجة مئوية تحت الظل، ومع ذالك قهرتها إرادة الانسان وعليه فمن الطبيعي أن الرحلات لم تكن تخلو من الصعوبات أو المخاطر التي تواجه القوافل في كثير من الأحيان، ويمكن تصنيف العراقيل والعقبات إلى مشاكل طبيعية: كالتيه في الصحراء الذي قد يكون سببا في هلاك القافلة كلها أو بعض أفرادها إذا ما ابتعدوا عنها فإذا ضلت القافلة الطريق لأي سبب كان كعدم وجود أدلة ذوي خبرة كافية بدروب الصحراء أو بفعل الزوابع والعواصف الرملية التي قد تخفي معالم الطريق، أو الهروب من قطاع الطرق، فحينها قد تكون النتيجة الهلاك المحتم خاصة في ظل تباعد أوقات مرور القوافل على مناطق معينة .

كما أن نفاذ مخزون المياه من القافلة مع إفتقاد آبار في الطريق يجعلها مهددة بالموت عطشا خاصتا في ظل صعوبة المناخ المتميز بالمدى الحراري الكبير والذي يؤثر بدوره على مواقيت سير القافلة من حط وترحال لتجنب التأثيرات القاسية، هذا إلى جانب ما قد تتعرض له القوافل من خطر هجمات الحيوانات المفترسة كالسباع والافاعي حيث أنها تمر عبر تضاريس متنوعة في أرض موحشة.
أغلب الطرق التي تجتازها القوافل الحيوانية أوالبشرية تختفي إثر نزول الامطار بل يزول كل أثر ها مما ينبت عليها من حشائش[33]

أما النوع الثاني من المخاطر فهي بشرية كالصعوبات الأمنية حيث أنه ولشساعة الصحراء لم يتمكن أي نظام لأي دولة من الدول التي قامت على أطرافها من فرض سيطرته ورقابته على أقاليمها و شعوبها، مما جعل المنطقة كلها تشهد كرا وفر بين قبائل عربية وبربرية للسيطرة على طرق وأقاليم معينة[34] وهو ما ساعد على تشكل عصابات اللصوص وقطاع الطرق التي يتزعمها سكان الصحراء من قبائل التوارق و البدو الرحل وهذا في ظل شح مصادر العيش لهذه العينة من سكان المنطقة، وهو ما يفرض تسليح القافلة لتدافع عن نفسها وتزويدها بمحاربين أقوياء من انتماءات قبلية متنوعة، وإلزام القبائل التي تستفيد من ضريبة المرور التي كانت تدفعها القوافل بضرورة حماية القافلة وتشكيل ما يشبه شرطة إستعلامات مسبقة، تتكفل بإبلاغ القافلة مسبقا بتحركات العصابات حتى تحتاط لنفسها، موازاة مع إتخاذ أدلاء أوفياء عارفين بمسالك الطرق ومواطن العصابات وهوية أفرادها وانتماءاتهم القبلية وأماكن وجود المياه والطرق الصحيحة[35] لتجنب مختلف المخاطر والمفاجأت

وقد كان من نتائج الثورة أن تعرضت المنطقة لأزمة إقتصادية لأن اليهود كانوا أهل صناعة والمحرك الحقيقي للمبادلات التجارية مع بلاد الساحل أو السودان الغربي وعانت المنطقة كثيرا خلال عهد امارة المغيلي من مشاكل إقتصادية بسبب تجنب تجار الشمال المرور بتوات عند رحلتهم لبلاد السودان الغربي[36] فأثر ذلك في قطيعة بين ضفتي الصحراء الى ان عاد اليهود لتمنطيط بشكوى السكان لزعيم قبيلة أولاد علي بن موسى عمر بن عبد الرحمان بعد تضرر وتعطل تجارتهم وحرفهم وإستند هو على فتوى القاضي العصنوني حيث أن تنفذ اليهود في المنطقة ولقرون عديدة جعلهم المحرك الاساسي للتجارة وجماعة وظيفية لاغنى عنها وهو ما أثبتته التجربة بعد ثورة المغيلي والذي في أثناء وجوده في بلاد السودان يواصل عمله الإصلاحي، بلغه نبأ مقتل أبنه الشيخ عبد الجبار في توات من طرف اليهود فطلب من الأسقيا أن يعتقل كل التواتين ثم تراجع عن ذالك[37]، وجمع أنصاره سنة 902هـ 1496 وجهز جيش للحرب ولم يتمكن من هزم غريمه فعاد إلى مركزه في بوعلي بوادي البرامكة، وإن كان اليهود قد عادو لتوات فلم يكن الامر بنفس القوة والنفوذ الاول بعد أن كسر المغيلي شوكتهم .

الى جانب اكتشاف رأس الرجاء الصالح وتحويل التجارة الى بحرية عوض برية عبر الصحراء مع التوجه الذي طبع الدولة الجزائرية الحديثة حيث اهتم العثمانيون في الجزائر بالواجهة البحرية وتركوا شوؤن التواصل جنوبا للسكان

وقد اثر التوغل الاستعماري في تدعيم القطيعة بين الجزائر والعمق الافريقي من دول الساحل خاصة مع نهاية القرن التاسع عشر فقد كانت الدول الاروبية (لا تملك) حتى 1876 من إفريقيا سوى عشر أراضيها إذ لم تكن قد توغلت داخل القارة بصفة عامة[38]

وقد حاولت فرنسا منذ بداية توغلها في الجنوب الجزائري السعي لاعطائه طابع خاص عن الشمال و لأسباب ثقافية سياسية عسكرية وإدارية في أوت 1902 أنشأ تجمع مستقل ذاتي لأقاليم الجنوب[39] وذلك بقانون 24 ديسمبر 1902 وصوت على ميزانيتها في 1903 ودخلت حيز التطبيق في 1904 [40]

في الوقت الذي كانت فرنسا تخطط لأنشاء مستعمرات من المحيط الاطلنطي في الغرب الى البحر الاحمر في الشرق وكانت السنغال التي إستولت عليها فرنسا في القرن السابع عشر بمثابة نقطة الوثوب الرئيسية للتوسع جنوب الصحاري، في سنة 1883 وصل الفرنسيون إلى مدينة بماكو فشنوا منها حروبهم على المملكتين الكبيرتين في المنطقة ... وفي سنة 1887 أرادت أن تعزل إحداهما عن الاخرى، فأرغمت حاكمها على توقيع إتفاق خاص يحول دون قيام جبهة موحدة من المملكتين .

وفي سنة 1890 شرعت فرنسا في فتح السودان الغربي كله فسيرت الحملات الحربية بمحاذاة نهر النيجر، وأقامت معاقل لها على طول الطريق وبنت خط حديدي يصل ساحل السنغال بداخلية البلاد.

وفي سنة 1900 إستولت فرنسا على جميع الاقاليم الواقعة حول بحيرة التشاد وإرتكبت في سبيل ذلك من الفظائع ما تقشعر له الابدان [41].

ومع هذا التوسع كان إعتماد الفرنسيين بالدرجة الاولى على النقل النهري في غرب إفريقيا[42] من خلال نهري السنغال والنيجر وكان لهذا التحول اثر مزدوج ساعد على توغل الاستعمار من الغرب الى الشرق بالنظر لصعوبة التوغل من الشمال أي الصحراء الجزائرية الى الجنوب عبر الصحراء الكبرى، وفي نفس الوقت قطع دول الساحل عن منفذها الشمالي مع ما يمثله من تاثير حضاري عربي اسلامي في المنطقة فسعت تحويل التواصل الى شرق غرب عوض شمال جنوب.

وقد سعى الاستعمار الفرنسي الى قطع بلاد الساحل عن موردها الثقافي والديني بمحاربة كل ما يدعم الحضور الاسلامي واللغة العربية وبالتالي احداث قطيعة ثقافية بين ظفتي الصحراء الكبرى، فإستعملت وسائل جدية للقضاء على المساجد والمحاكم الاسلامية فمن خلال موقف السيد باربيي في تقريره الى المسؤول السامي للبعثات التنصيرية في السنغال بتاريخ 29 ماي 1556 يتضح ذلك جليا ثم قامت بالتضييق على الكتاتيب القرأنية بقرار فيديرب يونيو 1857 .

ثم قرار جوبير في تعلم معلمو الكتاتيب اللغة الفرنسية ليعلموها بدورهم لتلاميذهم ثم قرار حاكم السنغال ماتيفير في 1896 الذي نص على غلق المدارس العربية[43] وهذا كمحاولة لربط شعوب المنطقة بها مباشرة وقطعها لغويا عن بلاد المغرب عامة، وزادت في الامعان على قطع اواصر كل تواصل بأن قامت الادارة الفرنسية برفض طلبات الطلبة الذين يريدون التوجه للأزهر أو الزيتونة لمواصلة دراستهم [44].

3 – معوقات التواصل الحالي

والتي يعد من ابرزها الرواسب الاستعمارية التي عمل الاستعمار الفرنسي خاصة على ارسائها برسم حدود لم تراعي التركيبة القبلية لسكان جنوب الصحراء ما انتج بعد ذلك مشكلة الازواد وغيرها فقد فكك الاستعمار البنية البشرية لمنطقة الساحل، ولم تراع الحدود أخصائيون ذوو معرفة تامة بما تجتازه تلك الخطوط من مظاهر طبيعية أو بشرية بل كان أغلب أجزاء هذه المستعمرات لم يكشف بعد ولذا رسمت الحدود بين هذه المستعمرات في العواصم الاروبية على الخرائط[45]، فتوزعت القبيلة الواحدة على عدة وحدات سياسية وضمت الدولة الواحدة عدة اثنيات وقبائل وهذا الامر انتج عدم استقرار امني وسياسي جعل المنطقة على صفيح ساخن تتناحر المجموعات البشرية فيما بينها وتصدر مشاكلها للضفة الشمالية للصحراء الكبرى.

ورغم ان الصحراء رغم شساعتها وصعوبة إختراقها أوعبورها ناهيك عن الحياة فيها لم تشكل حاجز بين سكان ضفتيها الشمالية والجنوبية، فقد أوجدت مسالك وطرق إرتادها تجار محترفين إسترزقوا من الحركة التجارية فكان لهم فضل نقل سلع بين المنطقتين، الى ان تكرس التواصل في جنوب الصحراء الى شرق غرب من ساحل السنغال الى بحيرة تشاد بسبب الاسنعمار الفرنسي كما اسلفنا يضاف الى ذلك ان أقاليم الازواد يعتبر فيها نهر النيجر العامل الرئيسي في توزيع السكان إضافة الى المراعي ومنابع الماء المنتشرة[46]، فاصبح التنقل اكثر بين المنطقة ذاتها شرقها وغربها خاصة في ظل الطابع الرعوي حيث أن عامل الاستقرار السكاني بتوات والطابع البدوي بالازواد يرجع الى عنصر الماء بإعتباره أداة أساسية في الحياة اليومية [47].

كما ان الاستعمار الجديد يعد أكبر خطر على الشعوب الافريقية[48] حيث عمل على عرقلة أي تكامل بين الشمال والجنوب وربط دول جنوب الصحراء – بإعتبارها مستعمرات سابقة – به مباشرة اقتصاديا وثقافيا وسياسيا فاي مشكلة امنية او سياسية لا بد ان تكون فرنسا صاحبة الكلمة الاخيرة فيها وهي صاحبة الحل والعقد بإعتبار المنطقة منطقة نفوذ لها خاصة بعد هور نوع من الاهتمام الامريكي وحتى منافسة لها في المنطقة، بالاخص خلال عهد الرئيس الامريكي بيل كلينتون وفي عهد خلفه بوش الصغير وتزعمه لما سماه الحرب ضد الارهاب والعودة لسياسة انشاء القواعد العسكرية والتدخلات تحت غطاء التعاون الامني والاستخباراتي .

وفي هذا الشان فان التاريخ الافريقي حافل بمظاهر عدم الاستقرار الامني الداخلي لما شهدته المنطفقة من انقلابات ناجحة واخرى محاولات فاشلة ساهمت في زيادة توجس انظمة دول المنطقة من بعضها وعرقلة التعاون والتكامل الايجابي فيما بين هذه الشعوب وشعوب الضفة الشمالية ولعل ابرزها في المنطقة.

- محاولة إنقلاب في السنغال 17دبسمبر 1962 من وزير الدفاع و الوزير الاول ضد سنغور [49]
- تدخل فرنسا لصالح طومبالباي في التشاد ضد حركة فلورينا في الشمال وإغتاجيش في ليلة 12-13 أفريل 1975 ثم محاولة إنقلاب ضد العقيد مالوم في 1976
- محاولة إنقلاب أولى في 13دبسمبر 1976 ثم إنقلاب سيني كونتشي ضد حماني ديوري في 15 أفريل 1974 وتعرض بدوره لمحاولة إنقلاب مضادة في 1976 [50]
- فولتا العليا إستولى الجيش على السلطة في 4 يناير 1966
- أطاح موسى طراوري بنظام موديبوكيتا في 19نوفمبر 1968[51]
- الانقلابات المتكررة في موريطانيا حيث اطاح معاوية ولد سيد احمد الطايع في 1984 بمحمد خونا ولدهيدالة ليطاح به هو الاخر في3 أوت 2005 و في 6أغسطس 2008: نفذ قادة الأجهزة العسكرية الرئيسية في موريتانيا بقياد الجنرال محمد ولد عبد العزيز قائد كتيبة الحرس الرئاسي ومدير الديوان العسكري لرئيس الجمهورية انقلاباً عسكرياً على الرئيس المدني المنتخب سيدي محمد ولد الشيخ عبد الله.

ولعل عدم الاستقرار الأمني وبروز استغلال المنطقة في النشاط الارهابي والتهريب زاد من تخوف دول الشمال من التواصل الغير مراقب خاصة مع بروز وإستفحال ظاهرة الهجرة السرية التي أخذت أبعاد مقلقة مستغلة مشكل الازواد في شمال مالي وفقدان هذه الدولة على السيطرة على جزء من أراضيها مما أدى إلى ظهور نشاط أرهابي تمون من الاسلحة الليبية التي هربت الى المنطقة عقب سقوط نام العقيد الليبي معمر القذافي، ولئن تغاضت الجزائر عن تدفق النازحين من شمال مالي الى أراضيها لأسباب إنسانية فإن هذه الموجات البشرية تحولت من لاجئين إلى مستوطنين رغم إستقرار الوضع في بؤر التوتر بل وتبعتهم موجات بشرية من بقية دول الساحل وحتى من وسط القارة .

وفي هذا الصدد فإن نزوح عناصر من بلدان الساحل إلى الجزائر ليس حديثا فأراضيها الموغلة في القارة الافريقية تجعل من الجزائر معبرا لا بد منه للراغبين في الهجرة السرية إلى أروبا عبر أقرب النقاط إليها خاصة تونس والمغرب الاقصى، لكن مع الوقت تحولت الجزائر إلى مكان إستقرار وليس عبور.

وتحول هؤلاء من لاجئين إلى مهاجرين ومناطق تجمعهم من مخيمات لاجئين إلى ما أصبح يعبر عنه بقرية إفريقية أو أفريكا تاون، تضم إثنيات مختلفة يسودها نظام قبلي يخضع لضوابط عرفية.

وفي هذا الصدد قد تكون هجرة هذه العناصر ذات فائدة للجزائر التي إحتضنت عبر تاريخها عناصر مثلت روافد ثقافات شعبية متعددة خاصة إذا ما إستغلت في الجانب الاقتصادي والانتاجي من أجل الدفع بوتيرة التنمية خاصة وأن البلاد أصبحت ورشة مفتوحة على عدة مشاريع كبرى تحتاج إلى يد عاملة ، غير أن المشكل يتمثل في بعض الممارسات السلبية التي حملها هؤلاء الوافدون من مظاهر التسول كحرفة ممتهنة كأسلوب معيشة إلى جانب ممارسات أخرى لا يتقبلها المجتمع، كما أن عمليات ترحيل هؤلاء بالالأف أصبحت تكلف الدولة أموال باهضة أدخلتها في شبه حرب مع عصابات تهريب البشر، وقد إستدعى الامر نقاشات برلمانية حث قدرت أعداد هؤلاء ب250 ألأف من حوالي 23 جنسية في يونيو 2014 حسب التقارير[52] وعمليات الترحيل هذه أخذت تستغل من طرف أطراف كانت هي السبب الرئيسس في إندلاع موجة الهجرة هذه وهي فرنسا بمنظماتها التي تدعي الدفاع عن حقوق الانسان إلى جانب المغرب الاقصى من أجل إحراج الجزائر فيحاولون الترويج لإتهامات.

وهذا في وقت تشهد الجزائر بعض المنافسة من طرف دولة المغرب الاقصى في لعب دور ريادي في منطقة الساحل الافريقي بحثا عن نفوذ في المنطقة فإن كان للمملكة المغربية أفضلية من الناحية التاريخية من خلال بعض الحملات التوسعية في الجزء الغربي من الساحل الافريقي خاصة خلال حكم المرابطين الذين نشأت دولتهم في موريتانيا وتوسعت شمالا إلى الاندلس وحكم السعديين، فالجزائر لديها اليوم أفضلية جغرافية من خلال إمتداد أراضيها في قلب القارة حيث أن أقصى حدودها الجنوبية هي أقرب إلأى سواحل كوت ديفوار وغانا ونيجيريا منها إلى سواحل جيجل وعنابة و وهران غير أن إستغلال الامكانات الطبيعية يبقى دون المستوى المطلوب في ظل التأخر في المسجل أمام المنافسة العلوية التي برزت خاصة بعد إنهيار النظام الليبي الذي كان يتحكم في الوضع وما أقامه من تجمع الساحل والصحراء (س،ص) فأصبح باب المنافسة مفتوح لملئ هذا الفراغ .

---

[1] الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج محمد الطمار سلسلة الدراسات الكبرى الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1983 ، ص236

[2] مبارك بن محمد الميلي تاريخ الجزائر في القديم والحديث جزء 2 المؤسسة الوطنية للكتاب ص483.

[3] . يحي بوعزيز، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية و الدولية، ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر،1999،ص 112

[4] يحي بوعزيز: " طرق القوافل و الأسواق التجارية كما وجدها الأوربيون بالصحراء الكبرى خلال القرن التاسع عشر" تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر،المنظمة العربية للعلوم والثقافة(د ط)،بغداد،1984، ص29

[5] يحي بوعزيز، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية و الدولية، ،ص 77

[6] محمد العربي الزبيري، التجارة الخارجية للشرق الجزائري في القرن ما بين (1792-1830) ،المؤسسة الوطنية للكتاب، ط2، الجزائر، 1984م،ص ص 163-164.

[7] حسين جاجوا: دور غدامس التجاري ما بين طرابلس و السودان الأوسط و الغربي خلال 1850م-1881م، أطروحة مقدمة لنيل دبلوم الدراسات المعمقة ، إشراف : عبد القادر زبادية، جامعة الجزائر،1981، ص52.

[8] إبراهيم مياسي : " الاهتمام الفرنسي بالصحراء "، مجلة طريق القوافل، المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ و علم الإنسان و التاريخ ، مطابع قرفي عمار، باتنة، الجزائر،2001، ص86.

[9] أبي الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا تحقيق إسماعيل العربي المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع بيروت 1970 ص126

[10] الحسن بن محمد الوزان الفاسي : وصف إفريقيا ، تر: محمد حجب ومحمد الأخضر دار الغرب الإسلامي ، ط2 ، بيروت ،1990م، ج2.ص136.

[11] فرج محمود فرج : إقليم توات خلال القرنين (18–19) م، ديوان المطبوعات الجامعية ، (د ط) ، الجزائر ، 2007م ،ص 1.

[12] نفسه ، ص 13

[13] محمد بن عبد العزيز الشريف الإدريسي : نزهة المشتاق في إختراق الآفاق ، مكتبة الثقافة الدينية ،(د ط)، مصر، (د س ن) ، ص 21.

[14] الوزان : المصدر السابق ،ج2،ص171.

[15] إصلاح محمد البخاري حمودة : انتشار الإسلام و الثقافة العربية في إفريقيا ما رواء الصحراء تنبكت غدامس نموذجا (7–11هـ)(13–17م) ،(د ن)، ط1(د،م ن)، 2004، ص184.

[16] محمد بن عبد العزيز الشريف الإدريسي : نزهة المشتاق في إختراق الآفاق ، مكتبة الثقافة الدينية ،(د ط)، مصر، (د س ن) ، ص 21.

[17] إسماعيل العربي:ا لصحراء الكبرى وشواطئها،المؤسسة الوطنية للكتاب،ط1،الجزائر 1983م، ص 61.

[18] بودواية مبخوت، العلاقات الثقافية والتجارية بين المغرب الاوسط والسودان الغربي في عهد دولة بني زيان تلمسان كلية الاداب والعلوم الانسانية قسم التاريخ دكتوراه تاريخ 2005–2006 ص296

[19] جان ليون : قصة الحضارة في اقر يقيا جغرافية و تاريخ تلمسان و بجاية و تونس و نوميديا و الشمال الإفريقي ، تر: نور الدين قورفو ، (د ط) ، دار الكتاب الحديث ، (م د ن) ، 2011م ، 543.

[20] الإدريسي : المصدر السابق ، ص 21.

[21] بودواية مبخوت، مرجع سابق، ص295

[22] كانت أغلب الاسواق مناسباتية حيث تقام كلما إقترب موعد وصول قافلة فتتم العمليات التجارية ومن بيع وشراء ومقايضة ثم تنفض السوق إلى أجل لاحق

[23] عبد القادر زبادية : الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء،المؤسسة الوطنية للكتاب،(د ط)،الجزائر،1969م، ص37.

[24] محمد الصالح حوتية توات والازواد ج 1 ج2 خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة الثامن عشر والتاسع عشر ميلادي دار الكتاب العربي الجزائر 2005 ص482

[25] أغلب الشطوط والسبخات التي يستخرج منها الملح توجد على أطراف الصحراء ويتعذر إستخراجه من المناطق حيث العرق أو الرق أو الحمادات وهي أبرز مظاهر السطح الصحراوي.

[26] أحمد ذكار : حاضرة وارجلان وعلاقاتها التجارية بالسودان الغربي (1000-1301)هـ (1591- 1883)م ، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الإفريقي الحديث والمعاصر ، (1430-1431)هـ (2009- 2010) م، ، ص96

[27] نفسه، ص 95.

[28] محمد العربي الزبيري : المرجع السابق، ص ص 165-166.

[29] نفسه ، ص 167.

[30] محمد محمود : " العلاقة الثقافية بين السكان في الشمال و جنوب الصحراء الكبرى " في أعمال ندوة التواصل الثقافي و الاجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء، منشورات كلية الدعوة الإسلامية و كلية الآداب، طرابلس 1998م، ص57.

[31] احمد ذكار : المرجع السابق ، ص 102.

[32] عبد القادر زبادية، مملكة صنغاي في عهد الأسيقيين (1493-1591) م، الشركة الوطنية للنشر والطباعة والتوزيع ، (د ط)، الجزائر،1971م، ص 223.

[33] دراسة في حركات التبشير والتنصير بمنطقة إفريقيا فيما وراء الصحراء بلهادي الدالي، عمار هلال الدار المصرية اللبنانية القاهرة ط1 2002 ص 386

[34] إلياس بن عمر الحاج عيسى ،" وارجلان دراسة في النشاط الإقتصادي و الحياة الفكرية في الفترة (4-10 هـ /10-16م)"، أطروحة مقدمة لنيل شهادة ماجستير في التاريخ الإسلامي ، إشراف عبد العزيز لعرج، جامعة الجزائر،2008-2009،ص87.

[35] نفسه ص89

[36] أحمد الحمدي ، محمد بن عبد الكريم المغيلي رائد الحركة الفكرية بتوات عصره وأثاره،إشراف عبد المجيد بن نعمية، رسالة ماجستير في التاريخ والحضارة الاسلامية، جامعة وهران،عام 2000 ص . 119.120

[37] عبد القادر زبانه : "التلمساني محمد بن عبد الكريم المغيلي بعض آثار هـ و أعماله في الجنوب الجزائري و بلاد السودان"،مجلة الأصالة ، ع26،ص212.

[38] موجز تاريخ إفريقيا ي سافلييف، فاسلييف ترجمة أمين الشريف دار الطباعة الحديثة الاردن ص43

[39] Gouvernement general de l algerie Les territoires du sud de l algerie 1er partie soubrion p300

[40] Idem p1

[41] موجز تاريخ إفريقيا ي سافلييف، فاسلييف ترجمة أمين الشريف دار الطباعة الحديثة الاردن ص60

[42] إستعمار إفريقيا زاهر رياض الدار القومية للطباعة والنشر مصر 1965 ص420

[43] دراسة في حركات التبشير والتنصير بمنطقة إفريقيا فيما وراء الصحراء بلهادي الدالي، عمار هلال الدار المصرية اللبنانية القاهرة ط1 2002 ص64

[44] نفسه ص 65

[45] إستعمار إفريقيا زاهر رياض الدار القومية للطباعة والنشر مصر 1965 ص385

[46] محمد الصالح حوتية توات والازواد ج 1 ج2 خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة الثامن عشر والتاسع عشر ميلادي دار الكتاب العربي الجزائر 2005 ص76

[47] نفسه ص78

[48] موجز تاريخ إفريقيا ي سافلييف، فاسلييف ترجمة أمين الشريف دار الطباعة الحديثة الاردن ص118

[49] مولود حمروش الظاهرة العسكرية بإفريقيا السوداء الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1981 ص44

[50] نفسه ص50

[51] نفسه ص69

[52] تم ترحيل 13 ألأف شخص في 2016